العلم ومصادر المعرفة

يكفي دلالةً على مكانة العلم في الإسلام أن أول سورة نزلت ابتُدِئت بالحديث عن العلم ووسائله، كما أن العلم جاء في القرآن في سياقات متعددة، في مئات من المواضع، سوى ما يتعلق به من مفاهيم أخرى كالتعقل والتفقه والتفكر والتدبر وغيرها.

هذا فيما يتعلق بالعلم من جهة كونه صفةً للإنسان.

أما ما يتعلق بحقيقة العلم نفسه، فبالإمكان
تقسيم العلوم جملةً إلى قسمين رئيسيين هما:

العلوم الشرعية أو علوم الوحي أو علوم السمع، وتنقسم إلى: علوم غاية وعلوم آلة.

العلوم الطبيعية أو التجريبية أو الحياتية أو الدنيوية، مثل العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية.

ومن ضمن الأمور التي دعا القرآن الكريم والأحاديث النبوية إلى اتِّباعها وجعلها من مصادر المعرفة هي:

العقل والتجربة البشرية، وبالرغم من أن مفردة (العلم) التي وردت في القرآن الكريم لا ترادف العلم التجريبي، إلا أن المعطيات القطعية للعلوم هي من مصاديق العلم.

ومن أعظم الأدلة التاريخية على عدم التعارض بين العلم التجريبي والعلم السمعي جمع عدد من علماء المسلمين بين تحصيل العلوم النقلية والعلوم العقلية، ولم يكن طلب العلوم التجريبية مقتصرًا على الزنادقة أو أهل العقائد المنحرفة كما يصِّور البعض، بل كان كثير من هؤلاء من أهل الاعتقاد الحسن والسلوك المستقيم.

والقرآن الكريم مملوءٌ بالحث على طلب الحجة والبرهان، والصدق واليقين، والحق والقسط، وهي أمور لا تتحقق إلا بالعلم، فطلبها هو طلب العلم ويقتضي العناية به، فمن تتبَّع القرآن وجده يحث على العلم وييسر كل طريق إليه ويزيل العوائق التي تقف في طريقه كالتحذير من اتباع الظن واتباع الهوى، والنهي عن تقليد الآباء بالباطل، ومحاربة الخرافة من السحر والشعوذة وغيرها.

منافع الاطلاع على العلوم التجريبية:

١ يعين على التفكُّر في الخلق.

٢ يفتح بابًا واسعًا للتفكُّر في عظيم صنعة الله المؤدي إلى خشيته.

والقرآن الكريم عندما يذكر الظواهر الطبيعية، إنما يذكرها في سياق بيان قدرة الله تعالى على هداية الإنسان إلى الحمد والشكر، ودلالة الخلق على الخالق وبيان وظيفة الإنسان، وعلاقته بالكون، ولا يذكرها مجردة كما في كتب الفيزياء وغيرها، فالإسلام جاء لتعبيد الخلق لله وهذه العلوم الدنيوية إنما هي أدوات لتحقيق الغاية.

مصادر المعرفة

السمع والبصر والفؤاد وسائل لتحصيل العلم والمعرفة.

العلوم الدنيوية الحسية ترتبط غالبًا بالعين، ومن هنا جاءت أهمية (الملاحظة) للعلوم التجريبية، وعلوم الوحي ترتبط غالبًا بالأذن والقلب؛ ولهذا سميت بالعلوم السمعية. ومع كون علوم الوحي مبناها على السمع، فإن ذلك لا يعني أنها مجرد أخبار عريَّة عن الأدلة العقلية، بل جامعة للأدلة العقلية والسمعية جميعًا.

إشـكالية **الإنسـانوية العلمويـة** ليسـت فـي اعتبار نتائج العلوم الطبيعية، ولكن في حَصرِ طريـق الوصـول إلـى الحقيقـة فيهـا، إذ حَصَـرَ العلمويـون مفهـوم العلـم فـي دراسـة الظـواهر دون البـواطن والغايات.

أما المسلمون فقد تحصَّل لهم اعتبارُ جميع مصادر العلم، ولهذا كان أكمل الأمم علمًا المُقِرُّون بالطرق الحسية والعقلية والخبرية، فمن كذّب بطريق منها فاته من العلوم بحسب ما كذب به من تلك الطرق.

فالعلموية التي تكذِّب بالأخبار الصادقة فاتها نصيب من العلوم فوق ما حصَّلته، والعلمويون مع ذلك متناقضون، فهم مع زعمهم بأنهم لا يقبلون من الأدلة إلا الدليل العلمي التجريبي يقبلون بخبر العالِم التجريبي دليلًا ولو لم يروا تجربته بأنفسهم، أو لم يفهموا عمله.

مشروعية العلوم الطبيعية

الأخذ بالعلوم الطبيعية التجريبية ألصق في القرآن بباب تسخير الأرض للإنسان وباب إعداد القوة وليس مندرجًا تحت العلم الممدوح في القرآن وهو العلم بالله وبشرعه، وينبغي أن يكون أصل مشروعيته قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}.

ومن آثار ما سرى إلى بعض المنتسبين إلى الإسلام من نزعة علموية: استنكارُهم وصف القوارع التي تصيب الكفار من زلازل أو فيضانات أو خسوف أو غيرها بأنها عقوبات إلهية، ويصفونها بالظواهر الطبيعية المادية.

فبعضهم يقول: لو كان ذلك حقًا لماذا تأخرت العقوبة كل هذا الوقت وقد وقعت منهم شرورٌ أعظم؟ ولماذا لم تستأصل الكوارث شأفة الكفار بالكلية؟ وها هي الكوارث الطبيعية تصيب المسلمين أحيانًا فهل هي عقوباتٌ أيضًا؟

الجواب:

١

قد تصيب الآياتُ بعض المسلمين بذنوبهم، وتكون لآخرين ابتلاءً وتطهيرًا وتمحيصًا، قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ}.

٢

وقوع العقوبات الكونية على الكفار أمره إلى الله جل جلاله توقيتًا ومقدارًا، وإصابةً لقوم وصَرفَهُ عن آخرين لله في ذلك كله الحكمة البالغة.

٣

لا يمتنع أن يجتمع للآية الكونية سببٌ غيبي وسببٌ ظاهر طبيعي؛ ككسوف الشمس وخسوف القمر وإرسال الريح.

الأخذ بالأسباب

هذا المبدأ من أصول العلم التجريبي، وفي القرآن والسنة تنبيه إلى أن الإيمان بالقدر والأخذ بالأسباب لا يتعارضان، فيتوكَّل المسلم على الله مع جِدِّه في السعي والعمل واحتياطه من المخاطر، فلا ينبغي الركون إلى الأسباب المادية والتعلق بها، والتعلق الكلي بالعلم التجريبي، والغفلة عن مسببِّ الأسباب سبحانه وضعف التوكل عليه.

معركة المصطلح

التعامل مع مصطلح ما لا يقف عند الحدود اللغوية، فلا بد للنظر إلى المعنى والمدلول والمفهوم في سياق بيئته وجذوره التاريخية والثقافية كما ننظر إلى اللفظ والمنطوق.

وعندما يراد لمضامين مصطلحات ما أن تهيمن على ثقافتنا فإنه لا بد من الحكم على المصطلح بأدواتنا العلمية، فالاستسلام للمصطلحات الوافدة بما تتضمنه من حمولة فكرية يقتل الذات، ويفقد الخصوصية والتميز الحضاري، ويجعل المسلم في غربة عن دينه وثقافته ولغته، ويعيش في دوامة من التناقض بين اعتقاده وثروة أسلافه وبين ما يسمعه ويعيشه في منظومته الحضارية.

إنّ حزمة المصطلحات التي تتبناها العولمة كالحرية (الليبرالية)، وحقوق الإنسان، والسلام، والإرهاب، والمدنية وغيرها، هي مصطلحات ينبغي الحذر والتحرز عند استعمالها؛ لأنهم يسعون إلى فرض قيم ومفاهيم معينة تتفق مع نظرتهم للكون والحياة والإنسان، وهي نظرة مغايرة للإسلام.

إن من أساليب التضليل التي يسلكها الغربيون تسمية أفكارهم وثقافتهم بأنها (عالمية) و(كونية)، وبأن من يخالفها هو خارج نطاق (العالمية) و(الكونية)، فمفهوم الحضارة العالمية يساعد على تسويغ بسط سيطرة الثقافة الغربية على المجتمعات الأخرى، وحاجة تلك المجتمعات إلى تقليد الممارسات والمؤسسات الغربية.

مصطلح الإنسانوية

من المصطلحات التي يُراد أن تُعطى صبغةً عولمية: مصطلح (الإنسانية)، وهذا المصطلح إذا أُطلق في الغرب فإنه غالبًا متضمنًا حمولة ثقافية، ومن هنا نعلم أن من الخطأ أن نقف عند حدود تعريف (الإنسانية) بأنها الإحسان إلى الغير، أو أنها مجدر أخلاقيات لا تستند إلى خلفيات فكرية وفلسفية.

فالبعض إذا سمع من يقول: (الإسلام ضد المذهب الإنساني) قد يتوهم أن الإسلام يقمع الإنسان، ويحجر على عقله وإبداعه، وفي هذا يقع خلط عظيم.

وأيضًا من يقول (الإسلام دين إنسانوي) هكذا بإطلاق، فإن في هذا الوصف مجازفة إذا استصحبنا المعنى الحقيقي لمصطلح الإنسانوية، فلا يصح إذن أن نصف الإسلام بأنه إنسانوي، فمثل هذا التجوُّز والتكييف السطحي يؤدي إلى تحريف حقائق الإسلام وتشويه مبادئه.

إنه من المضلل إسقاط المصطلحات التي لا صلة لها بالإسلام على الأفكار والأنظمة الإسلامية، فللإسلام نظام متميز يختلف من عدة وجوه عن الأنظمة الوضعية، ولا يمكن للنظام الإسلامي أن يُدرَس إلا في حدود مفاهيمه ومصطلحاته الخاصة.

ولـيس المقصـود بهجـر مصـطلح (الإنسـانية) إلغـاؤه بالكلية، ولكن لمَّا كان بعض من يطلقه يقصد مدلولـه المفارق للدين كان الأولى استعمال الألفاظ الشرعية كالبر والإحسان التي هي أكمل في المعنى وأدل في المقصود من لفظ الإنسانية.

كلمة أخيرة

١

المسلم الحق لا يجعل فكرة من الأفكار متعالية على مقتضى الوحي، سابقة له في الاعتبار، ويبتغي بكل أعماله وجه الله، وهو بذلك أكمل ممن يدَّعي أنه يقصد وجه الإنسانية وهو في الحقيقة لا يريد إلا تحقيق عَرَض دنيوي نفعي زائل.

٢

حصر مفهوم الدين في معاملة الخالق وحده رهبانية مبتدعة، وحصره في معاملة الخلق وحدهم دنيانية غالية، والحنيفية جمعت بينهما.

٣

المسلم الحق يعتز بانتسابه للإسلام؛ لأنه الاسم الذي سماه الله به، ولا يبتغي عنه بدلًا بأن ينتسب إلى مذهب إنسانوي أو غيره.

٤

المسلم الحق ينطلق في كل علاقاته من هدي الوحي، ويعقد ولايته على مقتضى الإيمان، ولا يزعم أن البشرية كلهم في المحبة والولاية سواء، وهو بذلك لا يعامل غير المسلمين إلا بالبر والقسط والعدل والإحسان.

٥

يُبَشِّـــر الإنســـانوي بالحـــب، ويدَّعي أنه لا يحمل في قلبه ضـغينة لأحـد، لكـن فلتـات اللســان تكشــف مكنــون الجنان.

٦

المســلم الحــق مــأمور بالقصــد والاعتدال والاتقان، وقد يسَّر الله له الأرض وليس للإنسانوية منَّة في ذلك، فالإنسان خليفة في الأرض باستخلاف الله له، يستمد قوَّته من خالقه سبحانه، وليس خليفة عن الله، وإنما بنو آدم يخلف بعضهم بعضًا.

٧

تنتحل الإنسانوية الفضائل، وتدَّعي أنها تتعالى على جميع الأديان وما ذاك إلا وهم؛ فما فيها من فضيلة فهو من بقايا النبوات، وما فيها من رذيلة فهو من آثار الوثنيات.

تم بحمد الله

Raseel
استشارات تربوية وتعليمية
Educational Consulting

كاتب وكتاب